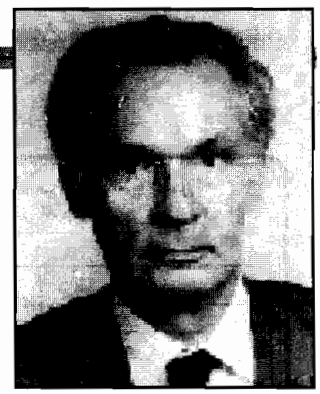

آخر كلام

الحكومة الخفية.. العاصمة المظلومة.. فشل دولة

بقلم

إسماعيل صبرى عبدالله

عزيزى القارىء لا تحسب أن هذه السطور هنا مجرد ماض أو تاريخ: أبدا، إنها تجربة صقلت إنسانا وصنعت رجلا تعلم منها ووطنا استفاد بالتالى، والسطور التالية بقلم وزير فلاح صعيدى من أبناء مصر، ترك الوزارة وهو الآن رئيس منتدى العالم الثالث..

الحكومة الخفية: ظهرت فى أواسط الستينيات فى أمريكا كتاب بهذا العنوان وترجم إلى عشرات اللغات ومنها العربية وكان موضوعه الأساسى هو انحرافات أجهزة المخابرات.. وبخاصة وكالة المخابرات المركزية من فرض سياسات وإثارة فضائح وحتى جرائم قتل، وهى بهذا تكتسب هيبة فى نفوس صناع القرار فى المستويات المختلفة. ويقول بعض الكتاب فى وقتنا هذا إن الولايات المتحدة التى أصبحت فى رأيهم القطب الأوحد تمثل على مستوى الكرة الأرضية سلطانها اقتصاديا متجاوزة سلطات كل الدول بما فيها الولايات المتحدة ذاتها فى ظل أيديولوجية السوق وانسحاب الدولة التدريجى من دورها الاقتصادى والاجتماعى..

ولكن ثمة سلطة خفية تتمثل قوتها فى حجم عملياتها التى تقدر بمئات المليارات وفى مقدمة أنشطتها الأفيون والكولا..

وقبل عشرين عاما صرح الأمين العام للأمم المتحدة أن تجارة المخدرات بيد شركات كبرى تحقق أرباحا سنويا تتجاوز خمسة مليارات دولار وفى نفس المستوى نجد تجارة السلاح.. وقد تتعجب حينما يكون المتحاربان فى دولة فقيرة من أين لهم بالسلاح؟ السلاح يكون من عائد بيع ثروات هذه البلاد مثل تجارة الماس المستخرج من أفريقيا فإن جزءا من أرباح هذه التجارة يوجه عن طريق وسطاء إلى شركات السلاح..

وفى العقد الأخير من القرن العشرين راجت من جديد تجارة الرقيق فى أوربا ويتمثل فى فتيات خدعن بفرص عمل فى دولة غنية وحولهن النخاسون إلى سلك الدعارة ويلحق بها تجارة الأطفال إلى جانب عمليات النصب على الفارين من بلادهم تحت وهم الإقامة فى دولة أخرى..

وكل ما سبق يعنى إجراء عمليات مالية متعددة وملتوية فيما يسمى عمليات غسيل الأموال والجالسون على قمة المال الحرام يشيرون بأوضاع مشروعة ضد محاولات (التشهير) ويعمل فى خدمتهم مستشارون فى الإدارة والمعاملات الدولية والعلاقات العامة إضافة إلى مستشارين خبراء فى الثغرات القانونية وهكذا تزدهر أعمال الحكومة الخفية من خلال المشروعات الحرام عابرة القارات..

العاصمة المظلومة: هى القاهرة من السحابة السوداء إلى توقف المرور لعدة ساعات متصلة فى أطرافها وفى الشوارع المؤدية لأطرافها. والسحابة السوداء تركز وقتى للتلوث الذى يغطى المدينة كلها ورغم تكاثر الظاهرة إلا أن مسئولا واحدا لم يقل ما أسبابها وكيف نعالجها..؟ والحكومة لديها أجهزة لقياس التلوث على مدى ٢٤ ساعة وإذا كانت تكتم نتائج القياس فليس بعد ذلك استخفاف بصحة الملايين من سكان العاصمة وأما إذا كانت تستخدمها فإن المصيبة تكون أكبر. ومن المعروف أن أهم الملوثات للجو هو عادم السيارات وكلما كان سير السيارات بطيئا فإن الإضرار بالصحة يتزايد. وعادم السيارات يفسد الجهاز التنفسى ويضر المخ..

أما قضية المرور فإن الدول المتقدمة تستفيد بالكمبيوتر ويقاس عدد السيارات التى تمر فى المنطقة المعنية أو حولها لعدة أيام وعلى مدار الساعة ثم يعد بعد ذلك نموذج رياضى يعكس تلك البيانات وما بينها من علاقات وتسمى نموذج المحاكاة وبالتالى يتم التعرف على أفضل الحلول.

لكن ماذا حدث عندما أنفقنا ٢٠ مليار دولار لخدمة السيارات.. وفى تقدير متحفظ فإن القاهرة الكبرى تضم ١٣ مليون نفس ومن يملكون إمكانية استخدام السيارة الخاصة لا يزيد عن ١,٥ مليون أما بقية القاهريين (١١,٥ مليون) فليس لهم أى اعتبار لدى المسئولين.

ولو فكر المسئولون فى خدمة تفيد أكبر عدد من السكان إن لم يكن جلهم كان من الممكن بهذا القدر من الإنفاق العام مد خطوط مترو الأنفاق من القاهرة الكبرى إلى كل المدن الجديدة حولها: أكتوبر والسادات والشروق وبدر والسلام والتجمعات.. كل الشعب بجميع فئاته سوف يستخدم المترو ويخف الضغط تلقائيا على القاهرة وبالتالى يخف التلوث من جو العاصمة ويخف الضغط على كافة مرافقها.. طبعا سكان القاهرة غرباء عن مدينتهم ولا صوت لهم ولا يشرعون بالمجلس المحلى الذى من المفروض أنه يحكمهم. فالمحافظ وزير، ومن الذى يطول الوزير أو يلقاه أو يشرف بالحديث معه؟!

انظر إلى العواصم الكبرى فى معظم الدول يحكمها مجلس بلدى ذو موارد مستقلة بعيدا عن ميزانية الدولة وينتخب انتخابا حرا ويرأسه عمدة منتخب بالاقتراع المباشر - إن الديمقراطية الحقيقية تبدأ من القاعدة (الحكم المحلى) التى يدعم وجودها الديمقراطية البرلمانية..

فشل دولة

فشل بمعنى تراخى وجبن. وفشل عن الأمر هم به وشكل عنه فالفشل يتضمن مضى التخاذل والقصور وهو فى هذا يختلف عن الإخفاق الذى يفيد الإخلاص والسعى والمثابرة وعدم إدراك النجاح لأسباب خارجة عن الساعى. والسبب فى هذه اللفتة اللغوية هو أننى كنت أبحث عن مقابل فى اللغة العربية لمصطلح انجليزى ظهر حديثا فى علمى الاقتصاد والسياسة فى تحليل الأوضاع غير المسبوقة التى انتشرت فى بعض بلدان العالم الثالث ونجاحه فى أفريقيا وهى صعوبة التعرف على من يحكم بالفعل فى دول ذات سيادة أعضاء فى الأمم المتحدة، إن وجد من يحكم أصلا، وهو تعبير FAILED STATE وميزته أنه وصف لحالة وطرح لسببها فى آن واحد، ففى تلك الأقطار «الصومال، سيراليون، ليبريا، رواندا، بوروندى، الكونغو.....الخ» تتتابع الانقلابات العسكرية وينتشر الصدام المسلح بين المواطنين وضاع الفرق بين الحرب الأهلية والحرب بين دولتين وقد استمرت هذه الأوضاع سنوات كثيرة.. والآن لم تعد الدول الصناعية السبع فى حاجة إلى دول العالم الثالث وبالتالى لا أحد يتحرك أو يفكر فى التدخل وفرض السلام..

لكن ما هو فوق التصور هو أن يطفو على السطح انتماءات عرقية قديمة سابقة على الاستقلال ما بين عرقية وقبلية ودينية ولغوية.....الخ أن علماء يحاولون إخضاع ظاهرة تفتيت الشعوب إلى البحث العلمى لعل وعسى..